

كاتب يُحيي اعتقاله المخاوف من عودة مناخ الاستبداد

توفيق بن بريك

تونسي متمرّد يُسجن بسبب نقده لتسييس القضاء



أسلوبه المثير في التعليق على الأحداث جعله محل ملاحقة من قبل نظام بن علي، واليوم يجد نفسه حديث الصحافة التونسية للسبب ذاته.



بن بريك يقضي عقوبته في السجن بعد الحكم عليه بالحبس لعام كامل، بسبب نقده قرار توقيف المرشح للانتخابات الرئاسية نبيل القروي العام الماضي.



صغير الحيدري صحافي تونسي

عزّت صور الصحافي والكاتب التونسي توفيق بن بريك مواقع التواصل الاجتماعي، في الأيام القليلة الماضية، للمطالبة بإطلاق سراحه بعد أن تم إيقافه تنفيذًا لقرار قضائي لاقى تديداً واسعاً داخل المنظمات النقابية. بن بريك، الذي يعد واحداً من أشهر الصحافيين والكاتب في تونس حكم عليه بسنة سجنًا لنقده القضاء التونسي في تعليق له على اعتقال المرشح لرئاسيات 2019 نبيل القروي أثناء الحملة الانتخابية. وتطالب العديد من المنظمات والنقابات في تونس بإطلاق سراح بن بريك متهمته القضاء بضرب حرية التعبير وتدعيم محاولات العودة إلى مناخات الاستبداد. وبينما حدد القضاء الرابع من أغسطس الجاري للنظر في مطلب الإفراج عن بن بريك، فإن المنظمات التي تسانده تواصل حشدتها من أجل ضمان إطلاق سراح الرجل والتصدي لمحاولات ضرب الحريات.

صفحة للحريات

تشهد تونس، منذ فترة، ما يشبه الارتداد عن الحريات بدءاً من محاكمة ناشطة بسبب محاكاة القرآن، مروراً بمنع تظاهرات لحجج لم تقنع أجداد، وصولاً إلى سجن كاتب صحافي ذنبه الوحيد أنه تجرأ على نقد قرار قضائي كان بمثابة "كلمة الحق التي أريد بها باطل"، وجاء في سياق توظيف سياسي للقضاء، في فترة تتسم بتوتر سياسي كبير حتمته الانتخابات التشريعية والرئاسية السابقة لأوانها.

"إيقاف بن بريك ضربة للحريات والرجل ملح الصحافة التونسية"، بهذه العبارات أوضح نقيب الصحافيين التونسيين ناجي البغوري وجهة نظر المنظمة النقابية العريفة التي يرأسها. فبالنسبة إلى البغوري وشخصيات سياسية معروفة بنضالها ودفاعها عن قيم الحرية والديمقراطية واجتمعت على الدفاع عن بن بريك على غرار زعيم حزب العمال اليساري حمزة الهمامي وعدد من المحامين التونسيين البارزين فإن إيقاف بن بريك يؤشر على تراجع في الحريات وهو ما يهدد بتقويض المسار الديمقراطي الذي اختار التونسيون انتهاجه.

وتم الزج بن بريك في السجن بعد الحكم عليه غيباً بسنة لنقده قرار توقيف المرشح للانتخابات الرئاسية نبيل القروي العام الماضي في خضم حملة انتخابية وهو ما أثار جدلاً آنذاك حول استقلالية القضاء من عدمها.

ويُعرف الكاتب التونسي باعتداده على أسلوب مثير عند تعليقه على الأحداث ما جعله في الماضي محل ملاحقة من قبل نظام الرئيس الراحل زين العابدين بن علي بسبب نقده اللاذع له، واليوم يجد بن بريك نفسه حديث الصحافة والإعلام التونسي عند إبلائه بأي تصريح نظراً لاعتماده النهج ذاته الذي يقدم من خلاله قراءة للأحداث.

ويُنظم المرسومان 115 و116 للذات تمت المصادقة عليهما في 2011 حرية الصحافة والإعلام في البلاد. وبحسب هيئة الدفاع عن بن بريك فإنه "لا وجود لأي إثبات بشأن أركان التلبس الذي اعتمده إحدى المحاكم التونسية في إصدار حكمها على الكاتب حسب ما تقتضيه فصول هذه المراسم".

وبصرف النظر عن أحكام هذه الفصول فإن بن بريك معروف بشراسته في مقارعة الأنظمة الاستبدادية والاستماتة في الدفاع عن معاني الحرية وقيمها لذلك لا يمكن سجنه بمجرد القيام بنقد لاذع للقضاء الذي بات في مرمى الاتهامات منذ فترة حسب ما يقول منتقدو هذا القرار. وتوسعت دائرة الاتهامات مؤخرًا

والتصنيف السياسي هو الشائع في تونس في هذه المرحلة التي تتسم بالضبابية إلا أن ذلك لم يثن بن بريك عن مواصلة النهج النقدي الذي اختاره. بعد نجاح الانتفاضة وسقوط بن علي تفرغ بن بريك مجدداً لعمله الصحافي والأدبي، ولم تمنعه معارضته الشرسية لممارسات النظام السابق من توجيه انتقادات لاذعة ومحاولات لفت النظر إلى مواطن الخلل التي ترافق الانتقال الديمقراطي في تونس.

وبأسلوب نقدي ساخر ذاع صيته قبل الانتفاضة، وأصل بن بريك جذب الجمهور دون أن يستجذب لا بالعاطفة ولا بالدين من أجل تحقيق نجاحاته.

ويبدو أن هذه الأساليب بدأت تخفق المنظومة الحالية في تونس والتي تستشعر في كل مرة خطر انهيارها للانتقادات التي تتعرض لها حيث امتد الفشل من الحكومات إلى الهيئات والمنظمات وغيرها وهو ما يرجح أن يكون من أسباب اعتقال بن بريك.

في أثناء ذلك تواصل منظمات وطنية على غرار الاتحاد العام التونسي للشغل والنقابة الوطنية للصحافيين التونسيين والجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات في الدفاع عن التعددية ومنظومة الحريات، لتسعى بذلك جامدة إلى تحصين هذه المنظومة، لكن ذلك ليس بالأمر السهل في وجود تقاطع للمصالح ومناخ متوتر سياسياً واجتماعياً أصلاً، لذلك تتعالى النداءات للتصدي لأي محاولة للعودة إلى الوراء كسجن بن بريك.

دائرة الاتهامات للسلطات التونسية بالتضييق على الحريات تتسع أكثر، بعد قرار سجن الشاب أمنة الشرقي بتهمة بث التباض بعد أن نشرت ما أسمته بسورة «كوفيد - 19» في إشارة إلى وباء كورونا

مصادرة جواز سفر بن بريك إلا أن الأخير أبقى إلا مغادرة البلاد نحو باريس حيث تلقى العلاج بعد الإضراب عن الطعام الذي قام به لأسابيع. لم تتوقف مطاردات نظام بن علي لبن بريك عند ذلك الحد، حيث جرى اعتقاله في العام 2010 وهو العام الذي اندلعت فيه الانتفاضة التونسية ضد بن علي. وعند الإفراج عنه لم يتوان بن بريك عن توجيه انتقادات لاذعة للنظام مجدداً. وقال حينها في جملة كان لكلماتها وقع الرصاص على نظام اهتز في مطلع 2011 "كانني لم أدخل السجن أبداً. سأكتب أكثر فأكثر وأقول له (بن علي): لديه السجن ولدي القلم. وبالرغم من أن التخوين

الأكبر مصطفى خزندار، الذي عاث في أرض أفريقية فساداً، وهي انتفاضة تزعمها علي بن غدامه الذي لا يزال اسمه محفوراً في ذاكرة التونسيين. نجح بن بريك في نقل وقائع من المشهد التونسي الاجتماعي السائد آنذاك بطريقة جريئة لا مثيل لها، ولأن حكايته لم يكن الهدف منها فقط إبراز هذه الصور فإنه تطرق من خلالها أيضاً إلى نمط عيش التونسيين الخاص بهم في الأرياف والقرى وغيرها، كما توضح الرواية انتصار المهمشين على أصحاب الجاه والنفوذ رغم ماسيهم عبر رفض أحد شخصيات الرواية تزويج ابنته لشخص ينحدر من أعيان البلاد وأثريائها. ويستمد الرجل رفضه، وهو الشيخ هراس، من جسده القوي وهي صورة لا يمكن أن تكون إلا إسقاطاً على واقع اجتماعي وحقوقى يبنى بالأسوأ في خضم تراجع الحريات الفردية وحتى العامة وفي ظل صعود تيارات سياسية دينية تهدد أجساد الناس وتدفع نحو تفتيشها غير أهية لا بحرمتها ولا بتدابير ذلك على استقرار البلد وقاطرة الحرية فيه.

لديكم السجن ولدي القلم

عندما تنتصف كتاب التاريخ في تونس فإنه حتماً سيخبرنا بأسماء قارعت الدكتاتورية وحكم الفرد الواحد طيلة 23 سنة حكم خلالها الرئيس الراحل زين العابدين بن علي. وبين بريك أبرز هذه الأسماء، حيث طارده النظام السابق في العديد من المرات، وكان "الراس المطلوب" رغم لجوئه إلى دول أوروبية وبقيت عقوبات سجنية تواجهه. ولأنه يصعب حصر مسيرة بن بريك النضالية في سطور، فإنه من الضروري التذكير بابرز محطات الرجل النضالية والتي كان أهمها إضرابه عن الطعام في مايو 2000 احتجاجاً على الزج بشقيقه في السجن.

ردة فعل النظام آنذاك كانت تصعيدية أكثر حيث تمت

أقضت مضجع نظام الحكم آنذاك. وبموازاة ذلك، كان بن بريك يراكم تجاربه الأدبية محدثاً ضجة كبيرة حول أعماله التي اتسمت بجرأة كبيرة. وبالرغم من أنه لم يتفرّد بأسلوب الكتابة بالدارجة في تونس، إلا أنه نجح في إلهام القراء بفضل جرأة لغوية غير معهودة تستهدف وصول كلماته إلى كل أفراد الشعب وهو أسلوب قد يكون بن بريك استلهم تجربته من تشارلز بوكوفسكي. يمثل بن بريك الأدب المتمرد والجريء الذي يكون ملاذ للفئات المسحوقة والشباب المهمش، ويبدو أنه استلهم كثيراً من تجارب تشارلز بوكوفسكي الذي ظلت أعماله مطلوبة وبقوة لدى القراء حول العالم بالرغم من أنه لا ينتمي إلى الحركات الأدبية المتمردة.

من "الآن سنسمعي" وصولاً إلى "وهران" مروراً بـ"كلب بن كلب" و"حكاية" وغيرها من الأعمال والمقالات نجح بن بريك في لفت جيل الأناضار إليه كظاهرة أدبية متفردة في تونس تستحضر المفردات الشعبية وخاصة الجريئة منها وتطوعها في نصوص لا تقدر بثمن.

وقد سبق بن بريك إلى الكتابة بالدارجة في تونس جماعة "تحت السور" وتتكون الجماعة من جيل مميز من الأدباء والشعراء وغيرهم برزوا مع مطلع الثلاثينات. وأبرز أعلام هذه الجماعة أبو القاسم الشابي وعلي الدواجي والبشير خريف وعبد العزيز العروي وغيرهم، بالرغم من وأبل النقد الذي واجهوه بسبب ترويجهم للعامة والمرآنة عليها للتأسيس لأدب وشعر محليين يتمكن من النفاذ إلى كل فئات الشعب في فترة ترزح فيها تونس آنذاك تحت وطأة الاستعمار الفرنسي.

لقد نجح هؤلاء في الولوج إلى عقول التونسيين، وبقيت أعمالهم راسخة في أذهانهم حتى بعد وفاتهم رغم الاتهامات لهم بالمحلية. ولم يحد بن بريك عن المسار، بل حاول تطويره وجعل أدبه صالحاً لمن "هب ودب" حيث جسدت رواية "وهران" مثلاً، وهي أحدث عمل روائي لبن بريك، هذا الكم الهائل من الجراة وصلت ببعض النقاد إلى توصيفها بالكتابة الداعرة.

رواية "وهران" حاول من خلالها بن بريك، وبأسلوبه الجريء، العودة إلى التاريخ للاستلها منه في عمله الروائي حيث تعود أطوار القصة وحجتها إلى فترة 1864، وهي فترة شهدت انتفاضة للتونسيين ضد الباي التركي محمد الصادق آنذاك ووزيره

للسلطات في تونس بمواصله التضييق على الحريات بعد قرار سجن الشاب أمنة الشرقي بتهمة نشر التباض بعد أن نشرت الشرقي ما أسمته سورة «كوفيد - 19» في إشارة إلى وباء كورونا واتخذت من سور القرآن قالباً لذلك. ومع سجن بن بريك، تتضاعف المخاوف من الحملات التي تستهدف الحريات فالرجل أولاً وقبل كل شيء كاتب متمرد يعد بمثابة الساحر لقدرته على التلاعب بالكلمات وتمكين القارئ من سبر أغوار العامية التونسية وبضربه عرض الحائط ذلك الحر من ردة فعل المحافظين دينياً على أعماله وهو ما يجعل كتاباته وحتى انتقاداته لبعض الأمور تعد صامدة للبعض.

الشرس وقوس المحكمة

ولد بن بريك عام 1960 في ولاية الكاف شمال غربي البلاد لعائلة عُرفت بنضالها السياسي والحقوقي. درس الحقوق قبل أن يتفرغ للعمل الصحافي في الثمانينات من بوابة جريدة الصحافة الحكومية، لكن أساليب التضييق على الأصوات الحرة دفعتة إلى اللجوء لمؤسسات صحافية خاصة وأجنبية أيضاً حيث دافع عن آرائه وتحقيقاته الصحافية بشجاعة



رواية «وهران» يحاول من خلالها بن بريك، وبجرأة، العودة إلى التاريخ للاستلها منه في العمل الروائي، حيث تعود أطوار القصة وحجتها إلى فترة 1864، وهي فترة شهدت انتفاضة للتونسيين ضد الباي التركي محمد الصادق آنذاك ووزيره الأكبر مصطفى خزندار

